المونسنيور
يوسف فخري
والمونسنيور
بولس الفغالي

وآمـــن إبـــراهيـــم

مقدّمة

حين أراد بولس الرسول أن يفهم اليهود الذين دخلوا الكنيسة أنَّ اليونانيّين - وبشكل عامّ الوثنيّين - يكونون في الكنيسة مثلهم، لا درجة أولى، أن تكون مختونًا، يهوديًّا، متكبّرًا لأنَّك من «شعب الله»، ولا درجة ثانية، كما كان الأمر بحسب الشريعة الموسويَّة: الوثنيّ لا يشارك في ذبيحة الفصح إن لم يختتن. واليونانيّ لا يكون في الكنيسة إن لم يختتن. المثال واضح ما حصل بعد عودة إلى أوَّل مجمع في الكنيسة، مجمع أورشليم. «انحدر قوم من اليهوديَّة، وجعلوا يعلّمون الأخوة: «إن لم تختتنوا بحسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا» (أع ١٥: ١). وكان جواب بطرس: «الله أعطاهم الروح القدس كما أعطاه لنا، ولم يميّز بيننا وبينهم... بنعمة الربّ يسوع المسيح نؤمن أنّنا نخلص نحن (اليهود) كما أولئك (الوثنيُّون) أيضًا» (آ ٨، ١١). ومع ذلك، لبث اليهود المسيحيُّون في رومة يعلنون أنَّهم «من طبقة أخرى»، لا سيَّما وأنَّهم كانوا الأكثريَّة. لهذا كتب لهم بولس مشدّدًا على الإيمان: «ظهر برّ الله بدون الناموس». لكن «بالإيمان بيسوع المسيح لكلّ الذين يؤمنون، لأنَّه لا فرق» (رو ٣: ٢١-٢٢). واحتاج العودة إلى الكتاب المقدَّس، فتحدَّث عن إيمان إبراهيم مع الكلمة الأساس: «آمنَ إبراهيمُ بالله فحُسب له برًّا» (رو ٤: ٣). وها نحن نحاول في هذا الكلام أن نتعرَّف إلى إيمان إبراهيم في ثلاث محطَّات. وقت دعاه الله: وقت أقام معه عهدًا. وأخيرًا حين قدَّم ابنه إسحاق على الجبل.

١ . انطلقْ من أرضك

بعد أن تحدَّث الكتاب عن أسرة تارح (تك ١١: ٢٧) مع أبرام (الذي سيصبح إبراهيم) وأخويه ناحور وهاران، وعن امرأته ساراي (أميرتي التي ستصبح الأميرة: سارة)، تفجَّرت

كلمة الله ردًّا على ما حصل في برج بابل في ما يُسمَّى «دعوة إبراهيم».

«انطلق». هو أمرٌ من لدن الله يشبه إلى حدٍّ كبير ما سوف يفعله يسوع المسيح في بداية رسالته. «سمعان، أندراوس، هلمّا ورائي... يعقوب يوحنّا، هلمّا ورائي» (مر ١: ١٦-١٩). وتركوا جميعهم الشباك وراحوا وراء يسوع.

إبراهيم «انطلق» هي خبرة روحيَّة عميقة. كيف سمع هذا الصوت؟ هل كما أسمع جاري ورفيقي؟ كلاّ. هو صوت في الأعماق يتوضَّح لنا من خلال الأحداث، ربَّما نقص الماء والكلأ من أجل المواشي. البعض يفسّر هذا الأمر وكأنَّه من قبيل الصدف. أمّا المؤمن فيرى فيه يدَ الله. لا صدفة في نظر المؤمن ولا حظّ. فإذا كانت طيور السماء بلا همّ وزنابق الحقل مثلها، فالمؤمن يضع يده بيد الربّ، مهما بدت لنا الظروف معقَّدة، فتدفع بعض ضعاف الإيمان إلى الخوف والتريُّث وربَّما الامتناع، كما حصل لموسى حين دعاه الربُّ، بحيث تهرَّب في النهاية. فيقول الكتاب: «فحميَ غضب الربِّ على موسى» (خر ٤: ١٤). والغضب هنا ألم في قلب الربِّ لأنَّ ابنه الذي يريد له أن يرتفع ويقوم برسالة، يتهرَّب ويتهرَّب، وكأنَّه يرضى بأن يعيش في هذه البرّيَّة، في هدوء وطمأنينة، مع أسرته وخرافه في حمى من استقبله بعد هربه من مصر. دعوة الله تحمل الخطر دائمًا. النوم ممنوع. البحث عن طمأنينة كاذبة ممنوع، الهرب ممنوع كما حاول أن يفعل يونان. وفي النهاية، قد يستغني الله عنَّا، ويأخذ آخَر مكاننا كما حصل ليهوذا أحد الاثني عشر «الذي أخذ وظيفته آخر» (أع ١: ٢٠)، عائدًا إلى مز ٦٩: ٢٦؛ ١٠٩: ٨.

أمّا أبرام فلا. «انطلِقْ»، فانطلق. وهناك تمزَّق. على إبراهيم أن يترك «الأرض». انسلاخ أوَّل. ثمَّ «العشيرة» وأخيرًا «بيت أبيك». لم تبقَ له علاقة بشريَّة. قطع كلَّ الروابط البشريَّة. وراح لا ينظر إلى الوراء. لا مثل امرأة لوط التي تحوَّلت إلى نصب ملح، ولا مثل العبرانيّين الذين لبثوا يحنُّون إلى بصل مصر وبطّيخها وسمكها... وهنا برز إيمانه. «انطلقْ» ولكن إلى أين؟ لم يقل له الربُّ شيئًا عن هدف الانطلاق. بل هو كلام غامض بالنسبة إلى الإنسان العاديّ: «الأرض التي سوف أريك» (تك ١٢: ١). هي صيغة الأمر. ولكن أين الطريق؟ وبانتظار أن يدلَّه الله، كيف يتوجَّه؟

أمّا المؤمن، فيحسُّ بيد الله تمسك بيده. هو يرى ما لا يُرى. كما قالت الرسالة إلى العبرانيّين (١١: ٣). ولهذا انطلق إبراهيم وكأنَّه يرى بكلّ وضوح في قلبه. فحيث الكلأ والماء هناك يمضي من محطَّة إلى محطَّة وفي كلِّ محطَّة يحسُّ بلمسة الله. فالربُّ لا

يعجّل لكي يُفهمنا ماذا يريد منّا. فإن عجَّل لم نكن مستعدّين لاستقباله. لا بدَّ من جوع وعطش.

بشريًّا، الأفق مسدود. «أجعلك أمَّة»، قال له الربّ: أين هي الأمَّة ولا ولدَ له. وامرأته سارة عاقر. ثمَّ أين هي الأرض؟ «وصل أبرام إلى شكيم، إلى بلُّوطة مورة، وكان الكنعانيُّون حينئذٍ في الأرض» (تك ١٢: ٦). قال له الربّ: «لنسلك أعطي هذه الأرض» (آ ١٧). إذًا، هذه الأرض تخصُّ الله وهو يعطيها «لحبيبه وخليله». ولهذا بنى إبراهيم هناك مذبحًا للربّ الذي ظهر له». تراءى، رُئي له. سمح له أن يراه، مع أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يرى الله ويبقى على قيد الحياة. ظهر له الربّ. كلَّمه وإبراهيم بدوره «دعا باسم الربّ» (آ ٨) أي رفع إليه الصلاة ولا وجود للآلهة التي عرضها أبرام في أور، في جنوب العراق الحاليّ، ولا في حاران، في الشمال. كما لم يعرف آلهة كنعان، عكس أولاده الذين يحنُّون دومًا إلى العبادات الكنعانيَّة لما كان فيها من ممارسات الفلتان. «دعا باسم الربّ» وكأنَّه استبق الوصايا: «أنا هو الربُّ إلهك، لا يكن لك آلهة غيري» (خر ٢٠: ٢).

ثمَّ، ما هذه المواعيد؟ قال له الربّ: «أباركك... تكون بركة... أبارك... من يباركك... وفيك تتبارك» (تك ١٢: ٢). خمس مرَّات. هو رقم القداسة: أقطار الكون الأربعة، واسم الله القدير. ولكن أين هي هذه البركة؟ كان العبرانيُّون يتكلَّمون عن ثلاث بركات. الأولى: الأبناء العديدون؟ أين هم؟ ثمَّ الغنى الوفير. فهو يكاد يكفي نفسه بنفسه، بحيث يختلف في ما بعد مع ابن أخيه، لوط. خفَّ الماء وخفَّ الكلأ. يقول سفر التكوين: «لم تحتملهما الأرض أن يسكنا معًا» (١٣: ١٦). لهذا كانت الخصومات بين رعاة أبرام ورعاة لوط... وافترق الواحد عن الاخر. تبقى الصحَّة لإبراهيم، وهي البركة الثالثة. وسيكون له العمر الطويل الذي يتجاوز ثلاثة أجيال، أي ١٢٠ سنة. فإبراهيم مات وهو ابن ١٧٥ سنة (٢٥: ٧) أي تقريبًا ما يعادل أربعة أجيال.

ما تذمَّر إبراهيم وما تأخَّر. كان معه ابن أخيه لوط. فتركه. وهذا تجرَّد عن آخر رباط عائليّ أمل أن يكون هو وارثه، إذا لم يعطه الله ولدًا من صلبه. وإذ أضحى وحيدًا وحيدًا، وعده الله أيضًا. قال: «ارفعْ عينيك وانظرْ من الموضع الذي أنت فيه، شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا. فجميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيك ولنسلك، وأجعل نسلك كتراب الأرض (تك ١٣: ١٤-١٦). هي طريقة الله في الكلام معنا. كلَّ مرَّة يخفتُ إيماننا. يكلّمنا. يذكّرنا بما وعدَنا. هو قال وسوف يحقّق ساعة يقرّر هو. ولكنَّنا

نحن معجّلون. ماذا ينتظر الله لكي يفعل؟ ألا يرى الحزن في قلوبنا الذي قد يؤثّر في إيماننا؟

٢ . وقطع الربُّ مع أبرام عهدًا

يدُ الربِّ هي مع أبرام. لأنَّه ذاك الفقير الذي لا يتطلَّع أحد إلى غناه لكي يسلبه. فالغزاة لا يمضون إلى القرى الصغيرة وإلى البوادي حيث ترعى القطعان، بل إلى المدن. وهكذا راحوا إلى المدن الخمس، ومنها سدوم، حيث يقيم لوط ابنُ أخيه. سقطت هذه المدن بيد الآتين من الشمال. وهدموا، وأحرقوا وأخذوا السلب. واقتادوا الأسرى ومنهم لوط، الذي راح مع الذين راحوا. وأخبروا إبراهيم فجهَّز «جيشه» الذي كان فقط /٣١٨/ شخصًا. فماذا يشكّل هذا تجاه الجيوش التي هاجمت البلاد؟ هذا الرقم هو رمز: إلهي عوني. إ ل ي: ٤١ حسب حرف الأبجديَّة ع ز ر: ٢٧٧: وهكذا يكون المجموع ٣١٨. من انتصر؟ إبراهيم ورجاله القلائل؟ بل الربّ. هذا الاسم الذي أخذه ذاك الفقير الملقى عند باب الغنيّ (لو ١٦: ١٩ي). من انتصر في النهاية فكان في حضن إبراهيم، بل كان في العذاب؟ لا الغنيّ، بل إلعازر الذي جعل اتّكاله على الربّ لا على خيرات هذه الدنيا. ثمَّ إنَّ الرقم ٣١٨ كان عدد الأساقفة الذين التأموا في المجمع المسكونيّ الأوَّل وأعلنوا الإيمان بالثالوث، كما أعلنوا الإيمان بأنَّ يسوع هو ابن الله، المساوي لأبيه في الجوهر أو الذي هو وأبوه جوهر واحد.

انتصر إبراهيم بإيمانه، لا بجيشه. انتصر على أربعة جيوش العالم، في الشرق والغرب، في الشمال والجنوب مع ملوك أربعة. «تدعال» هو الملك الحثّيّ. ونحن نعرف ما كانت عليه قوَّة الحثّيّين الذين أقاموا في تركيّا الحاليَّة وأوقفوا المصريّين عند قادش على نهر العاصي ورموهم في المياه، كما يروي سفر الخروج عن فرعون وجيشه الذين ساروا وراء موسى والقبائل. أمرافل يجعلنا نتطلَّع إلى حمورابي مؤسّس مدينة ماري على نهار الفرات. أمّا أريوك فهو رئيس شرطة نبوخذنصَّر (دا ٢: ١٤)، وهو يدلُّ على البابليّين أو الكلدانيّين. ولفظ «جوييم» هو جمع يدلّ على الوثنيّين بشكل عامّ. بماذا ينتصر عليهم وهم الذين يعبدون آلهة «لها عيون ولا ترى، ولها آذان ولا تسمع، ولها أيدٍ ولا تفعل، ولها أرجل ولا تتحرَّك». ينتصر عليهم بإيمانه بالله الواحد.

وإذا انتصر بقدرة الله، لا بقدرته الخاصَّة، رفض أن يأخذ شيئًا من السلب الذي عاد به من هؤلاء الملوك الأربعة. فلا متاجرة بالإيمان. مجّانًا أعطاه الربُّ النصر ومجّانًا يعيد

الخير لأصحابه. هكذا كانت المعجزة حيث لا عدد الجيش هو الذي فعل، بل قدرة الله. لهذا سوف يقيم الله عهدًا مع إبراهيم. فالمبادرة هي منه لا من الإنسان. أمّا الإنسان فيتجاوب، أو لا سمح الله، لا يتجاوب، لأنَّه يخاف على المستوى البشريّ. فالله هو الذي ينتصر بالقليل أو بالكثير. وإذا أراد الإنسان أن يفتخر بانتصاره، يطلب الله منه أن يخفّف جيشه. ذاك ما فعل مع جدعون: كانوا ثلاثين ألفًا. فرجع منهم اثنان وعشرون ألفًا... وفي النهاية كان مع جدعون ثلاثمئة رجل (قض ٧: ٦). أجل الله يفعل، وبيدنا يفعل.

وكيف قُطع العهد بين إبراهيم والله؟ قال له الله: خذ عجلة وعنزة وكبشًا ويمامة وحمامة (تك ١٥: ٨). خمسة حيوانات، هو رقم إلهيّ. ثمَّ شقَّ هذه الحيوانات في الوسط. هكذا كانوا يفعلون، وبهذا يؤكّدون أنَّهم يلبثون أمناء. ومن خان العهد، «يُقطع» مثل هؤلاء الحيوانات. ويواصل النصّ:

«ولمّا صارت الشمس إلى المغيب، وقع على أبرام سبات (آ ١٢)، نوم عميق كما حصل لآدم قبل أن يخلق الله من ضلعه حوَّاء. هو دخول في السرّ. والله وحده يتصرَّف. هو حاضر. والدليل على ذلك ما أصاب إبراهيم من رعب. ثمَّ كانت الظلمة، ومنها كلَّم الله إبراهيم.

وبعد الكلام كان العمل. «غابت الشمس فحلَّت العتمة. وإذ تنوَّر دخان ومصباح نار يعبر بين تلك لقطع» (آ ١٧) الله وحده عبر. وما دلَّ عليه هو الدخان والنار. فالإنسان ليس على مستوى الله. فالله نار محرقة ومن يجسر أن يقترب منها؟ ثمَّ أيُّ إنسان يقدر أن يقول إنَّه سيكون أمينًا إلى النهاية؟ لا إنسان إطلاقًا. لهذا كانت تتجدَّد العهود بين الله والبشر. من آدم إلى نوح إلى إبراهيم إلى يعقوب وصولاً إلى موسى وشعبه. أمّا نحن في العهد الجديد، فالذي يقطع العهد مع الآب هو الابن يسوع المسيح. فمثل هذا العهد هو أبديّ، كما قال الربُّ حين أسَّس سرَّ الإفخارستيّا ودعا تلاميذه إلى ذاك العشاء: «هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي» (١ كو ١١: ٢٥).

بدأ إبراهيم وتذمَّر. بعد أن قال له الربُّ إنَّه ترسه، أي يحميه من سهام الأعداء. والأجر هنا هو «نتيجة السلب». ولكن أين هو هذا الأجر الذي لا يمكن إلاَّ الولد الذي يرث أباه. قال إبراهيم: «أنا ماضٍ عقيمًا، ومالك بيتي هو أليعازر الدمشقيّ... لم تعطني نسلاً» (١٥: ١-٢). ولكن عاد الربُّ وأكَّد: «الذي يخرج من أحشائك هو يرثك» (آ ٤).

والجواب من لدن إبراهيم؟ «فآمن إبراهيم ولأجل هذا اعتبره الله بارًّا» (آ ٦). يعني توافق مع مشيئة الله وفرح بالسير معه. الله تكلَّم وهذا يكفي. وكلمته فاعلة. هنا ذكر الربُّ إبراهيم بما فعل له كما سوف يفعل لموسى وللشعب: «أنا الربُّ الذي أخرجك من أرض الكلدانيّين لأعطيك هذه الأرض لترثها» (آ ٧). مشروع الله واضح. أوَّلاً، رافق إبراهيم في هذه المسيرة الطويلة. لا خطر في طريق من اللصوص ولا من الوحوش المفترسة. ونلاحظ أنَّ الذي كتب هذا النصّ بعد العودة من المنفى يلمّح إلى ما حصل للعائدين من بابل بعد أن أطلقهم كورش الملكُ الفارسيّ. ألا يكفيك هذا، يا إبراهيم؟ ولكنَّ السؤال لا يزال حاضرًا: «بماذا أعلم أنّي أرثها؟» (آ ٨). فكأنّي يقول له: أرني إيَّاها. أعطني علامة. لا مجال لعلامة بشريَّة. بل هي علامة إلهيَّة. الله نفسه هو العلامة. وحضوره الذي يملأ القلب فرحًا هو أعظم علامة.

آمن إبراهيم. هي ثقة تامَّة بما وعدَ به الله. فكأنَّه يقول: آمين. ليكن كذلك. وأنا متأكّد أنَّك تعطيني. فالإيمان يعني الحقيقة. وهل من حقيقة توازي تلك التي يقدّمها الله للإنسان؟ ويعني أيضًا الأمانة. الله هو أمين، كما قال الرسول (١ كو ١: ٩). ويبقى أمينًا حتَّى إذا لم نكن نحن أمناء» لأنَّه لا يقدر أن ينكر نفسه»، كما قال الرسول أيضًا (٢ تم ٢: ١٣). والإيمان يعني الثبات والتجذُّر بحيث لا شيء يزعزعنا. ونجد شهادة لإيمان إبراهيم حين يعمل ما يطلب منه الله، فيقدّم ابنه ذبيحة.

«في ذلك الوقت، قطع الربُّ مع أبرام عهدًا» (١٥: ١٨). وبما يقوم العهد؟ الله يعدُ حبيبه بالحماية. يكون له ترسًا. وحبيبه يردُّ على الأمانة بالأمانة، ممّا يجعله ينتظر أجر «الجنديّ» المجاهد، أو الفلاّح الذي ينتظر الغلَّة. والوعد يتكرَّر. هل نسيت يا إبراهيم؟ ولكنَّ الربَّ يعود دومًا لكي يغرز كلامه في قلب المؤمن كما المسمار بالخشب: «لنسلك أعطي هذه الأرض» وهي واسعة وسع العالم المعروف في العصور السابقة للمسيحيَّة: من نهر الفرات إلى نهر النيل. ولكن ما يؤسف له أنَّ الربَّ وعد «إسرائيل» بأن تتوسَّع وتأخذ هذه البلدان الواقعة بين هذين النهرين الكبيرين. وكيف يسيطر عليها هذا الرجل المؤمن؟ أبسلاحه؟ ولكن لا سلاح بيده سوى عصا الراعي. فحين يصل الإيمان بالإله الواحد «من النيل إلى الفرات» يكون إبراهيم انتصر. ثمَّ يُعدُّ له الربُّ عشرة شعوب كانوا يقيمون بين «النيل والفرات». هؤلاء كلُّهم مدعوُّون، لأنَّ الله ليس إله «شعب واحد» ليس مثله في ما بين الشعوب. الإيمان هو للجميع والرسول قال لتلميذه تيموتاوس: «الله يريد أن يخلُص جميعُ الناس ويُقبلون إلى معرفة الحقّ. لأنَّ الله واحد، والوسيط بين الله والناس

واحد، هو الإنسان يسوع المسيح» (١ تم ٢: ٤-٥). وهكذا تجاوزنا العهد القديم، لنصل إلى الكمال مع العهد الجديد.

٣ . الآن علمتُ

ما قولكم؟ أمَا كان الله يعلم قلب إبراهيم وهو الذي يعلم ما في الإنسان، كما قال الإنجيل الرابع (يو ٢: ٢٥)؟ بلى. ولكنَّ إبراهيم سيمرُّ في محنة ولا أصعب. نظر إلى العالم الكنعانيّ الذي يقدّم البكر للإله. فهل يكون إبراهيم أقلَّ سخاء وإلهه هو ربُّ السماء والأرض؟ لهذا عزم على التضحية بإسحاق. ولكنَّه الوحيد. وهو المحبوب. وهو الضاحك الذي جعل أمَّه تضحك. هو ابن المرأة الفضيلة، سارة الأميرة، لا ابن الأمة هاجر، وخصوصًا هو ابن العهد. فإن ضحَّى به والده، ماذا يحصل لمسيرة العهد ولذاك الذي يرث إبراهيم وإيمانه؟ في أيّ حال، مرَّتين ضحَّى إبراهيم بحاملة العهد لكي ينجو بحياته: في مصر وفي جرار. والآن، هو يضحّي لا بحاملة الوعد، سارة، بل بمن هو العهد، إسحاق.

ما هذا الإيمان الذي يتبع عوائد الأمم؟ وأين شريعة: لا تقتل؟ إلى أين يمضي إبراهيم؟ هو في الواقع يعمل ما يعمله الآخرون. ولكنَّ الآخرين لا يؤمنون بالله الواحد. فإلى أين أنت ماضٍ يا رجل الله؟ يا من سوف يدعوك الربُّ «النبيّ الذي يصلّي من أجل ملك جرار فيحيا ويحيا شعبه». وينجون كلُّهم من الموت بسبب سارة والذي في حشاها.

ولكن حين نقرأ سفر التكوين (ف ٢٢) يُطرَح علينا سؤال: هو «الله امتحن إبراهيم» بعد أن أعطاه الاسم الجديد، فلم يعد أبرام مع أبٍ رفيع ربَّما على الأرض، بل صار إبراهيم، أي أبو الجموع الكثيرة على قدر الرمل على شاطئ البحر والكواكب في السماء؟ أتُرى الله تراجع عن مشروعه ولم يعد إسحاق حامل العهد؟ ولكنَّ الرسول يقول: «لأنَّ هبة الله ودعوته هي بلا ندامة» (رو ١١: ٢٩). فإذا كان الأمر هكذا فكيف يطلب الربّ من إبراهيم ما طلب؟

نتذكَّر أنَّ كلَّ ما يحصل في الكون، في الشعب وفي الإنسان، يعود في أصله إلى الله، الذي هو العلَّة الأولى لما يحصل للإنسان كما في الكون. أمّا العلَّة الثانية، فهي أنا، أنتَ، أنتِ. لهذا نقول: نيَّة إبراهيم طيّبة وهي تدلُّ على سخاء تجاه الله. ولكنَّ التعبير عن هذا

السخاء ليس في محلّه. والربّ لا يريده. والعلامة على ذلك هو أنَّه أرسل ملاكه فأمسك بيد إبراهيم ومنعه من ذبح ابنه، فقال: «أنا علمت» (٢٢: ١٢).

ولكن إذا تجاوزنا هذا الأسلوب في الكتابة، نرافق إبراهيم في مسيرته الإيمانيَّة. فبالرغم من جميع الصعوبات، لم يتراجع. ونلاحظ أنَّ إسماعيل ترك أباه هو وأمّه، ولم يبقَ في البيت سوى إسحاق. ويشدّد الكاتب فيقول لنا من هو إسحاق في نظر إبراهيم، على مستوى الحياة المادّيَّة والحياة الروحيَّة. كلُّ أب (وكلُّ أمّ، نلاحظ غياب سارة كلّيًّا) يتعلَّق بأولاده وخصوصًا إذا كان وحيدًا. ثمَّ عرف إبراهيم أنَّ الإيمان ينتقل بواسطة ابنه إلى الأحفاد، وإلى شعب يكون كثيرًا جدًّا.

ناداه الله. فأجاب: «ها أنا» هو جوابه الدائم. وقال: «خذ ابنك» هو أمرٌ من لدن الله. فهل يرضى إبراهيم ويتراجع؟ عندئذٍ لا يدلّ على إيمانه، هل يتأخّر؟ كلاّ. هو ما اعتاد أن يفعل ذلك. «بكَّر إبراهيم». والمضيّ باكرًا يدلّ على الاستعداد لتنفيذ ما يأمرنا به الربّ.

«قام إبراهيم وذهب إلى الموضع الذي قال الله له عنه» (٢٢: ٣). قد يكون هذا الجبل واحدًا من جبال الأموريّين، كما قالت الترجمة السريانيَّة. والأموريّون اعتادوا الإقامة على المرتفعات. ولكنَّ التقليد الروحيّ سوف يربط هذا الوضع بفعل «رأى». فهناك سوف يُبنى الهيكل. وهكذا تماهى الجبل مع جبل صهيون. وفي أيِّ حال، تحدَّث الكتاب عن «مخافة» إبراهيم للربّ. فرؤية الله والخوف منه يترافقان. لأنَّ حضور الله يملأ القلب خوفًا ورهبة.

ولكن، هل وصل إبراهيم حالاً إلى ذاك الجبل، واهتمّ أن يعمل بسرعة ما طلب منه الربّ؟ لا. بل «في اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد» (آ ٤). ويمكن أن نقول: رأى الله هناك. ثلاثة أيَّام يسير إبراهيم مع ابنه. فما ضعف إيمانه ولا تخاذلت إرادته. فالإيمان، كما سبق وقلنا، يعني الثبات في ما نقوم به. ثمَّ إنَّ اليوم الثالث يدلُّ على أكثر من عدد من الأيَّام. هو يدلُّ على اللقاء بالربّ. فهذه العبارة سوف نقرأها في أكثر من موضع وصولاً إلى العهد الجديد، حيث اليوم الثالث، لا يعني ثلاثة أيَّام بـ ٧٢ ساعة، فالمسيح قام ما إن وُضع في القبر أو إذ هو بعد على الصليب. ولكنَّ النسوة اختبرن قيامته في اليوم الثالث.

عمل سرّيّ رفيع، ما عرفت به سارة، ولا الخادمان، ربَّما كانا أوقفا إبراهيم عن مثل هذا العمل الجنونيّ، «اجلسا أنتما ههنا مع الحمار، وأنا والغلام (إسحاق) نذهب إلى

هناك ونسجد ثمَّ نرجع إليكما» (آ ٥). وسأل إسحاق أباه عن المحرقة. نورد مرَّة ثانية فعل «الله يرى» هذه الذبيحة ليست كما يظنّ الوثنيُّون عادةً موغلة في القدم. الله يرى إبراهيم. بل هو يرافقه منذ الصباح الباكر ليشدّد له إيمانَه في هذه المحنة. وخصوصًا ليوقفه، ويُفهمه كما يُفهم شعبه أن الولَد البكر لا يُذبَح، بل يُفتدى بخروف، بحمل أو ربَّما بفرخي حمام أو زوجي يمام، كما فعل يوسف ومريم بالنسبة إلى يسوع.

أمّا الترجوم فيوضح: الله يرى... وإلاَّ تكون أنت المحرقة يا ابني. ويواصل الترجوم فيدلُّ على إيمان إسحاق الذي انتقل إليه من أبيه: «اربطني جيّدًا يا أبي، لئلاَّ ألبط وأتحرّك وأُجرَح فلا تعود ذبيحتك مرضيَّة لله، ووضع إبراهيم ابنه إلى الحطب. ويقول الترجوم أيضًا: وكانت عينا إسحاق ناظرتين إلى السماء، وعينا إبراهيم ناظرتين إلى ابنه. هي نظرة الوداع الأخير، وكم تحتاج إلى إيمان. وقال الملائكة من السماء: انظروا هذين الشخصين. صارا «مشهدًا للناس والملائكة».

لا مذبح هناك، فبناه إبراهيم. ورتَّب الحطب وكأنَّه يعدُّ فراشًا لابنه، «ثمَّ مدَّ إبراهيم يده وأخذ السكّين ليذبح ابنه» (آ ١٠). هنا ذروة الإيمان. وأصعب لحظة جعلت إبراهيم مثل الآب السماويّ وهو يقدّم ابنه يسوع المسيح على الصليب. أجل، الإيمان يرفع الإنسان إلى مستوى الألوهة. إلى هناك وصل إبراهيم. قدَّم ابنه وحيده إسحاق الذي يحبُّه. قدَّمه لله وما تراجع. فكانت له ملء البركة. ماذا؟ خسر ابنه ونال بركة: في مثل هذا العطاء لا يكون الإنسان أبدًا أكثر سخاء من الله.

قال الكتاب في آ ١٩: «ثمَّ رجع إبراهيم إلى غلاميه» وأين هو إسحاق؟ هل أخذه الله وأبقاه له لكي يكون صورة عن ابنه، كما تقول الطقوس: ما مات ابن إبراهيم. أمّا الله فأحبَّ العالم وقدَّم ابنه لكي لا يهلك أحد بل تكون لنا الحياة الأبديَّة.

خاتمة

تلك كانت مسيرة إبراهيم الإيمانيَّة. ناداه الربُّ. آمن بالنداء. وانطلق. قال الكتاب: سوف يرى الموضع. أمّا إبراهيم فرأى الموضع بعيني الله. وفي كلِّ خطوة كان يقوم بها يحسُّ أنَّ الله يمسك بيده. في إيمانه، قطع الله عهدًا معه. وخطا الخطوة الأولى وطلب من

صفيّه أن يواجه المسيرة وإن تأخَّر عطاء الله له. وكانت ذروة الإيمان في عمله حين أخذ ابنه إلى جبل موريًّا. وهكذا تكلَّل إيمانه بأعماله. ذاك ما شدَّد عليه يعقوب، أخو الربّ، مجيبًا على فهم سيّئ لما قاله بولس الرسول في شأن الإيمان. اعتبر هؤلاء القائلون أنَّ الإيمان يكفي، وأنَّ لا حاجة إلى الأعمال. قال لهم: «يعقوب: «ما المنفعة، يا إخوتي، إن قال أحد إنَّ له إيمانًا، ولكن ليس له أعمال. فهل يقدر الإيمان أن يخلّصه؟» (يع ٢: ١٤). وواصل كلامه: «فالإيمان إن لم يكن له أعمال ميتٌ في ذاته» (آ ١٧). ثمَّ تحدَّى القائل إنَّ له إيمانًا. قال يعقوب: «أرني إيمانك بدون أعمال وأنا أريك إيماني بأعمالي» (آ ١٨). قالوا له: انظر إبراهيم. قيل عنه: آمن بالله. فردَّ القدّيس يعقوب: «قدَّم ابنه إسحاق على المذبح». وهكذا تبرّر بالإيمان ودُعيَ خليل الله. لا إيمان بدون أعمال. ولا أعمال بدون إيمان. فالإيمان يجعلنا مثل الغصن على الكرمة. إن كان متعلّقًا بالكرمة، لا بدَّ أن يُثمر. وإن هو لا يثمر، فهذا يعني أنَّه مقطوع عن الكرمة ولا تمرُ فيه حياة الله. لهذا جاء كلامُ يعقوب قاسيًا: أنت تؤمن والشياطين يؤمنون. أتريد أن تكون حياتك شبيهة بحياة الشياطين؟ كلاّ، أجاب. وفي أيّ حال، انطلاقًا من إيماننا نتشبَّه بإبراهيم المؤمن، مهما اعترى هذا الإيمان من صعوبات وهفوات. ففي النهاية، ما توقَّفت البركة بل انتقلت إلى إسحاق (تك ٢٥: ١١). ثمَّ إلى يعقوب وصولاً إلى يسوع «مُبدئ إيماننا ومكمّله».